بقلم: أنطوان شلحت

ما بين التذكّر والنسيان

حول دهاليز بناء «الذاكرة القومية» الإسرائيلية

توطئة

خلال الإحتفالات بمرور ستين عامًا على تحرير معسكر الإبادة النازي «أوشفيتس» في بولندا، في شهر كانون الثاني ٢٠٠٥، حرصت إسرائيل، أكثر من أي شيء آخر، على مدّ جسور الصلة الحميمة بين الهولوكوست وبين أهمية وجود «دولة يهودية قوية» تشكل في عرفها «الضمانة الوحيدة لعدم تكرار تلك التجربة الرهيبة»، وذلك في تجييش واضح لـ«المظلة الدولية» التي جرى فردها فوق هذا الحدث. وفيما ينطوي هذا الحرص، في العمق،على تذكير بـ«جوهر» إسرائيل، سواء من طرف قباطنتها أو من طرف الذين يراقبونها بمنظار مخصوص، فإنه يفتح ملف الهولوكوست وأشكال تدرجه في الرواية الصهيونية بما يخدم مسعى بناء الذاكرة القومية (الجماعية). ولعل ما يهم من الملف المذكور حاليا هو هذا التدافع الإسرائيلي الرسمي، على أعلى المستويات، لتكريس الرواية الرسمية الذاهبة إلى أن الهولوكوست كان حصرياً في اليهود وليس من أحقية أحد أن يقاسمهم إياه. فإن هذه الحصرية تشكّل أسّ المبرر«الأخلاقي» لوجود «دولة يهودية»، أولاً ودائماً.

وفي الحقيقة فقد مرّت تلك الإحتفالات دون أن «يعكّر صفوها« أحد ممن درجوا في السابق على مفارقة مسألة الحصرية، لناحية إنعاش الذاكرة البشرية بأن شعوبًا أخرى دفعت ثمنًا ليس أقل بهاظة تحت وطأة جرائم الوحش النازي.

وربما تعود آخر مفارقة من هذا القبيل إلى تموز ٢٠٠٣، وتمثلت حينها في تصريحات أدلى بها رئيس رومانيا، يون إلييسكو، لصحيفة «هآرتس» الإسرائيلية وقال فيها إن الهولوكوست لم يكن منحصراً في«السكان اليهود في أوروبا»، وإنما طاول عشرات الملايين من مواطني

أوروبا الآخرين. ولكنه فيما بعد تراجع عنها على أثر سيل لم ينقطع من الاحتجاجات الإسرائيلية، الرسمية وخلافها، عليها.

في السنوات الأخيرة شهدت الكتابة الاجتماعية والتأريخية الإسرائيلية دعوات مختلفة، من جانب باحثين ومؤرخين ومثقفين، لإعادة النظر في المقاربات الصهيونية الرسمية لموضوعة الهولوكوست ووجهة ترسيخها في الذاكرة القومية الإسرائيلية، وبالذات ألحّت على إعادة النظر في منطلقين رئيسيين لتلك المقاربات:

الأول- منطلق الحصرية، الذي استغلق على ناحية استنباط «خصوصية الإبادة» المتعلقة باليهود فقط، لمجرّد كونهم كذلك.

والثاني- منطلق التعمية على مواقف اتخذتها قيادة الييشوف الصهيونية في فلسطين إزاء الهولوكوست. وهي مواقف تميزت أساسًا بالاستنكاف عن تقديم المساعدات لإنقاذ اليهود، حدّ التواطؤ أحيانًا.

والواقع أنه تحت تأثير هذا الاتجاه نشرت في إسرائيل أبحاث جديرة بالاهتمام في هذا الشأن. لكن في نقطة ما توقف هذا الاتجاه عن النمو أو انكفأ على نفسه، تماماً مثلما انكفأ على نفسه الاتجاه الذي مثله تيار «المؤرخين الجدد». وبالتالي لم تُسمع، على هامش «المعركة» ضد تصريحات رئيس رومانيا السالفة، سوى الأصوات التي «تنتصر» للرواية الرسمية وتكفّر الرواية الأخرى.

قد لا يحيل الأمر إلى تساوق، من جانب الباحثين والمثقفين، مع «أكثر الجوانب حساسية في تاريخ المجتمع اليهودي» بقدر ما يحيل إلى التغيير الأكثر أهمية ودلالة الذي يجتاح هذا المجتمع منذ تفجّر الانتفاضة الثانية، وإن لم يفتقد إلى ما يدججه من عناصر تدعيم قبل ذلك أيضًا. ويبقى من المفيد الإشارة، دائماً، إلى أن هذا التغيير هو تغيير ثقافي، بنيوي وليس تغييراً مظهرياً فحسب. أما الجوهر الحقيقي لهذا التغيير فهو يكمن في استعادة المبدأ الصهيوني الأثري المنطوي على إيمان شبه أعمى بالضرورة الملحة لـ«دولة» تعمل على دفع مصالح الشعب اليهودي إلى الأمام. وفي مثل الحالة مع رئيس رومانيا فإن الاستعادة تمت إزاء موضوع لم يحلق كثيرًا بعيدًا عن دائرة «الإجماع» وظلّ خاضعًا لمنظومة الهيمنة، غير أن استعادة المبدأ السالف تجري أيضاً حتى من طرف الذين حاولوا أن يحفروا في مترتبات نشوء هذه الدولة على «الشعب الآخر» خارج دائرة «الإجماع».

الذاكرة والنسيان هما جزء من منظومة الهيمنة ومن منظومة بناء الذاكرة القومية. وينوه باحثون في هذا الشأن إلى أن أيديولوجيي الدولة القومية أوجدوا كذلك «ذاكرة الموتى»، الذين يحمل رسالتهم ويواصل دربهم المقاتلون الأحياء. والنسيان أيضًا مرتبط ببناء القومية. وبعض الأيديولوجيين القوميين، مثل الفرنسي إرنست رينان، جعلوا هذا النسيان حتى مطلبًا قوميًا. وهكذا فلا غرو إن تضمن مشروع بناء «الأمة الإسرائيلية» وفرة من الأشياء التي كان ينبغي بـ«الذاكرة القومية» نسيانها (ومن ذلك يذكر الباحث يتسحاق لاؤور، مثلا، البيدشية وما جرى ارتكابه ضد اليهود الشرقيين الذين جلبوا إلى هنا وطرد الفلسطينيين). كما تضمن وفرة من الأشياء التي كان ينبغي بتلك الذاكرة أن تتذكرها، بدءً من «الشعب المختار» والآباء والهيكل الثاني وباركوخبا وانتهاء بـ«تمرّد غيتو وارسو» باعتباره مندوبًا- تمثيليًا لذكرى الهولوكوست.

سنتوقف في هذه المقالة عند موضوعين تتواتر، بتفاوت ما، عمليات إخراجهما إلى الضوء من عتمة دهاليز بناء «الذاكرة القومية» الإسرائيلية، ارتباطًا بما تقدّم: الموضوع الأول يتعلق بالدوافع المستترة خلف تذكّر ما ينبغي من إحداثيات الهولوكوست. ويتطرق الموضوع الثاني إلى بعض وقائع نسيان ما ينبغي من سيرة اليهود الشرقيين، حسبما ترد في كتاب بحثي جديد لعالم الإجتماع الإسرائيلي يهودا شنهاف عنوانه «اليهود العرب- قومية، دين وإثنية».

يؤكد سيغف أن قيادة «الييشوف» اليهودي في فلسطين حصرت اهتمامها، عشية الهولوكوست بالتحديد، في إنقاذ اليهود الراغبين في الهجرة فقط أو اولئك الذين «اعتبرتهم قادرين، جسمانياً وعقلياً، على الإسهام في نجاح الجماعة» (اليهود في فلسطين). ومن هذا المنطلق اختاروا الشباب القادرين على العمل في الزراعة وأهملوا المهنيين والتجار وكبار السن، أي حسب تعبير الرئيس الثاني لحكومة إسرائيل، موشيه شاريت «أحضروا الجيّد وتركوا الرديء»!

أولا- الهولوكوست وصورة «اليهودي الجديد»

شهدت الكتابة الاجتماعية والهستوريوغرافية الإسرائيلية، في الآونة الأخيرة، ولا تزال تشهد دعوات مختلفة من جانب باحثين ومؤرخين ومثقفين إسرائيليين لإعادة النظر في طريقة التعامل مع الهولوكوست.

وينطبق على هذه الكتابة- شأن غيرها من الكتابات المحدودة المتجوهرة في تأمل الماضي من منطلق محاسبة الذات على وجه الدقة- عنصر الغوص على غائية الأسطورة المرتبطة بهذا الموضوع، بما يسعفها في الخلوص الى تفسيرات فاعلة.

من هذه التفسيرات مثلاً، لا على سبيل الحصر، القول إن

الرئيس الالماني هورست كوهلر (يسار) في زيارة حديثة لـ «ياد فاشيم»

الهولوكوست أدى دوراً تحفيزياً في شحن الاستيطان اليهودي- الصهيوني في فلسطين بالمزيد من الهجرات الجماعية، التي تدفقت من أقطار أوروبا وخصوصاً التي أصبحت فيما بعد ضمن عداد «المنظومة الشرقية». ولهذا فإن دلالته المباشرة مثلت عضداً وعوناً على إشاعة فكرة «الدولة اليهودية» أكثر فأكثر وعلى كسب ودّ وتأييد الرأي العام العالمي للحركة الصهيونية. وإتكاءً على هذا التمثيل، على مستوى الدلالة الخفيّة، لم تتخذ قيادة الاستيطان اليهودي – الصهيوني في فلسطين (قيادة الييشوف) أية خطوات حاسمة من شأنها أن توحي بتأويلات، لناحية كونها «دلالات مضادة» لاجراءات المحرقة النازية.

يجدر بنا، بدايةً، أن نستعيد ما يؤكده المؤرخ إيلان بابي من أن اقتحام المسائل المعنوية والخلقية لإطار البحث العلمي بشأن الصهيونية شكّل إيذاناً بتعبيد طريق، لم تكن مشقوقة من قبل، أمام نظرة متفحصة جديدة للهولوكوست وتأثيراته المختلفة على المجتمع الإسرائيلي[1].

ومع أن الأبحاث في هذا الصدد لا تزال، حتى الآن، تتسم بمقاربة وضعية[2] تدفع الباحثين الى العودة المستمرة نحو وثائق الأرشيف والمحفوظات فإن بعض هذه الأبحاث يحتوي كذلك على مواقف أيديولوجية تخضع للفحص والتحليل ما يمكن اعتباره «أكثر الجوانب حساسية في المجتمع اليهودي» (الإسرائيلي).

ويمكن الإشارة، في هذا الخصوص، إلى كتابين متميزين:

الأول بعنوان «المليون السابع» من تأليف توم سيغف[3]، والثاني بعنوان «ذهب اليهود» من تأليف عيديت زرطال[4].

يؤكد سيغف أن قيادة «الييشوف» اليهودي في فلسطين حصرت اهتمامها، عشية الهولوكوست بالتحديد، في إنقاذ اليهود الراغبين في الهجرة فقط أو اولئك الذين «اعتبرتهم قادرين، جسمانياً وعقلياً، على الإسهام في نجاح الجماعة» (اليهود في فلسطين). ومن هذا المنطلق اختاروا الشباب القادرين على العمل في الزراعة وأهملوا المهنيين والتجار وكبار السن، أي حسب تعبير الرئيس الثاني لحكومة إسرائيل،

موشيه شاريت «أحضروا الجيّد وتركوا الرديء»!

كذلك يشير المؤلف نفسه إلى أن الاتجاهين السياسيين الكبيرين في الييشوف اليهودي في فلسطين، وهما المباي بزعامة دافيد بن غوريون واتحاد الصهيونيين التنقيحيين بزعامة زئيف جابوتنسكي، حاولا استغلال ضائقة اليهود في أوروبا من أجل جلبهم إلى فلسطين. وفي هذا الاطار جرت اتصالات مع السلطات الألمانية أسفرت عن اتفاقيات لتهجير أعداد منهم. واستمرت هذه الاتصالات حتى أواسط الحرب العالمية الثانية، وأجريت في السرّ وتحولت الى مادة للمضاربات السياسية والاتهامات المتبادلة بين المبائيين والتنقيحيين.

ويورد سيغف آراء متضاربة بشأن مدى معرفة قيادة الييشوف بالخطط الألمانية النازية لتصفية يهود أوروبا الشرقية. غير أنه يميل الى الرأي القائل إن هذه القيادة أدركت هذا الأمر منذ البداية، وأدركت معه انها عاجزة عن انقاذ اولئك اليهود. ويبدو أن الوكالة اليهودية وبن غوريون بشكل خاص وضعا أولوية تدعيم الييشوف اليهودي وتحضيره لمرحلة الدولة فوق أية اعتبارات أخرى، مهما تكن. ومن بين القرائن العديدة على ذلك ما أعلنه بن غوريون، في الأسبوع الثاني لاندلاع الحرب العالمية الثانية، أمام اجتماع اللجنة المركزية لحزب «مباي» في تل أبيب، من أن «أعضاء الحزب لا يقررون مصير ما يحدث في أوروبا.. ولا فائدة ترجّى من الكلام عن التطورات الأخيرة، بل ينبغي التعامل معها باعتبارها كوارث طبيعية».

ونجد في كتاب زرطال إشارات قوية الى أن اليهود «الصابرا» (الذين ولدوا في فلسطين) تبنوا موقفاً متعالياً ورافضاً إزاء الناجين من أوروبا وإزاء مأزقهم، وهو موقف كان من شأنه أن يخلّف «آثار ندوب عميقة في نفوس اولئك الذين نجوا من الهولوكوست وهاجروا الى فلسطين». وتغذى هذا الموقف من وقائع تعامل قيادة الييشوف مع هؤلاء، وبالأخص مع المهاجرين الألمان. ويستذكر سيغف، في هذا المجال، أن المهاجرين الألمان لدى قدومهم إلى فلسطين انتقلوا إلى بيئة حضارية مختلفة وكانت دوافعهم الصهيونية موضع شكّ دائم ولم تحظ بتصديق الييشوف اليهودي. كذلك لم تكن هذه الدوافع على درجة عالية من القوة بحيث تمكنهم من احتمال «المناخ القاسي» و«الحياة المتقشفة». وقد انضموا الى اليهود الألمان الذين سبقوهم في الهجرات الأولى وكوّنوا معاً «كتلة ألمانية» في الييشوف، غير أن أعضاء هذه الكتلة حرموا أحيانًا من التحدث باللغة الألمانية في اجتماعاتهم أو مناسباتهم الاحتفالية.

إلى هنا نكون قد توقفنا عند وقائع تقريرية أو يغلب عليها، بهذا الشكل أو ذاك، الطابع التقريري شكلت تحديّا للباحثين والمؤرخين الوضعيين حول الهولوكوست والكيفية التي تعاملت بها معه قيادة الييشوف اليهودي في فلسطين.

لكن الأهم من تلك الوقائع ومن ذلك التعامل يبقى كامناً في دلالات أخرى تقف في صلب سيرورة التشييد لعناصر الرواية الاسرائيلية الرسمية حول الهولوكوست، ليس أبسطها تجيير ما حلّ باليهود من فظائع وعذابات لصالح تدجيج عملية صياغة وتكوين «اليهودي الجديد» في هيئة «الجسور والمقاتل».

يرى أكثر من باحث صهيوني أن إحدى أبرز محصلات الهولوكوست هي ذهاب يهود أوروبا «الى المسلخ مثل الخراف». وهو التعبير الحرفي الذي استخدمه أبناء الييشوف، وقيادته أحياناً، لتوصيف ضحايا النازية، في إلماح مفرط في جهارته الى غيظهم وحنقهم على هذا الخنوع الذي يصيب المنطلقات الصهيونية لتعزيز صورة «اليهودي الجديد» في مقتل. وترتباً على ذلك تغيًّا باحثون آخرون أن يربطوا بين هذا الموقف وبين حقيقة أن قسماً من قيادة الحركة الصهيونية في فلسطين رفض تقديم أية مساعدة في انقاذ يهود أوروبا. وحتى عندما أضحت فكرة الإبادة النازية خطرًا على درجة كافية من الملموسية اشترط هذا القسم تقديم المساعدة بالحصول على ضمانات لا تُرَدّ بأن يسهم الناجون في الجهود المنصرفة نحو صياغة «اليهودي الجديد» ونحو إنشاء «الدولة اليهودية».

ومصداقاً لهذا الربط يقتبسون عن بن غوريون ما كتبه في سنة ١٩٣٨ عقب «ليلة البلّور (الكريستال)»، حيث قال : «لو أني أعرف أن في مقدوري إنقاذ جميع أولاد ألمانيا (اليهود)، بواسطة نقلهم الى انجلترا، وانقاذ نصفهم فقط بواسطة نقلهم إلى أرض اسرائيل، لما ترددت في اختيار الأمر الثاني»[٥].

في هذا الموقف، الذي اعتبره البعض مثيراً للتقزّز، ما يفسّر تواضع هذه القيادة نفسها، بعد أن أصبحت قيادةً للدولة، في الحديث عن الهولوكوست وفي أخذه بالحسبان في مجرى إجراءات برمجة «الذاكرة القومية». غير أن هذا التواضع سرعان ما انحسر مع إعادة فتح هذا الملف ارتباطاً بمحاكمة رودولف كاستنر[٦] وفيما بعد ارتباطا بمحاكمة أدولف أيخمان[٧]. وانطلقت جهود برمجة الرواية الاسرائيلية

حول الهولوكوست من منطلقين يكمل واحدهما الآخر:

* الأول- منطلق الحصرية، الذي اجتهد لناحية استنباط «خصوصية الإبادة» المتعلقة باليهود فقط.

ومن ذلك القول إن الدافع الأرأس لحملات الإبادة هو كون اليهود في المنفى، وتذكير العالم بضرورة مساعدة الدولة اليهودية الفتيّة تعويضاً عما لحق باليهود من فظائع وآثام، وتعزيز الفكرة القائلة إن الدعاية المعادية للصهيونية هي دعاية لا سامية وبالتالي فان محاربتها تستدعي دعم دولة اسرائيل.

* الثاني- منطلق التعمية على المواقف المذكورة أعلاه لقيادة الييشوف الصهيونية حيال الهولوكوست، مواقف الاستنكاف عن تقديم المساعدات لإنقاذ اليهود، حدَّ التواطؤ، وكذلك مواقف الاستعلاء والنبذ إزاء ضحاياه والناجين منه سواء بسواء.

في هذا الحكم التفسيري ما يحيلنا إلى المنطلقات الرعناء للبحث عن «الخصوصية اليهودية». فلقد شكل هذا البحث، المحمول على ثمن باهظ من الضحايا والعذاب، وسيلة غايتها دعم المنطلقات الصهيونية. ولهذا فان قيادة الييشوف لم تتجاوز غائياتها المألوفة، على ما بها من بلادة تشمل الحسّ والتفكير والعقل معاً، ونظرت إلى «التمرد» باعتباره عملاً صهيونياً جديراً بأن يدخل صفحات «التاريخ الرسمي» للصهيونية. وهي الغائيات نفسها التي وقفت، من قبل، وراء ترويج حملات الازدراء والرفض لضحايا الهولوكوست وللناجين منه كذلك.

ولئن حظي المنطلق الأول بالعديد من الدراسات والتحليلات النقدية التي اتسمت بميل واضح إلى الموضوعية، فان المنطلق الثاني يتمظهر الآن، في منطوق الكتابة الهستوريوغرافية والاجتماعية الجديدة ذات الرؤية المغايرة، بوصفه موضوعاً مثيراً للتقصي والاستحصال.

ويمكن القول إن النتائج الناضجة لعملية التقصي والاستحصال تظهر، حتى الآن، أن التعمية التي أشير إليها في سياقة تحديد المنطلق الثاني اتخذت منحيين دلاليين :

* الأول- منحى التظاهر بأن قيادة الييشوف بذلت كل ما كان في مستطاعها أن تبذله لانقاذ يهود أوروبا من المحرقة النازية. لكن الظروف الموضوعية كانت أقوى منها.

* الثاني- منحى تضخيم الدلالات المضادة لتعبير «الذهاب الى المسلخ مثل الخراف» والمتمثلة، أكثر شيء، في المقاومة التي أبداها اليهود داخل «الغيتوات».

ويهمنا، هنا والآن، المنحى الثاني نظراً لعدم تحرر تجسيداته من أسر المنطلقات الصهيونية السابقة، وبكلمات أخرى إخفاقه في إنجاز مهمة «عكس النوايا».

ويندرج في هذا الإطار التعامل الدلالي المفهومي للرواية الاسرائيلية الرسمية مع مقاومة اليهود في غيتو وارسو، وهي المقاومة التي حولتها تلك الرواية الى مثل أعلى للبطولة ومنحتها صفة «التمرد» بامتياز.

تشير عيديت زرطال، بكفاءة لافتة، إلى أن القيادة الصهيونية للييشوف اليهودي في فلسطين، وبالأخص بن غوريون، اعتبرت رجال المقاومة اليهودية في «غيتو وارسو» من «البلماحيين الذين حاربوا في الشتات»، حسب تعبير يتسحاق سديه[٨].

هذا التوصيف كان من شأنه أن يؤطرهم، عشوائياً، بكونهم أرض اسرائيليين وقعوا في أسر الشتات (الدياسبورا).

وإذا انضاف الى تعبير سديه السالف قوله إن «رجال المقاومة حاربوا هناك ونحن حاربنا هنا« تتضح معالم قطبي المعادلة المتوهمة لظروف تلك «الحرب»: هنا وهناك- في جانب واحد أرض اسرائيل (فلسطين)، البعيدة المتباعدة عن مرمى آلة القتل والتصفية النازية. وفي جانب آخر، مواز ومكمل، «الشتات» الواقع تحت وطأة تلك الآلة.

وتضيف زرطال :

... أما من الناحية العسكرية الصرف فان تمرد غيتو وارسو لا يصنف في عداد العمليات الكبيرة. فهو لم يسهم بشيء في تقصير أجل الحرب العالمية الثانية أو في سحق النازية. ولم يغير قيد أنملة في عمليات القتل النموذجية التي تعرض لها يهود أوروبا.. ونهاية هذا التمرد معروفة للجميع: التهمته ألسنة النيران وجعلته أثراً بعد عين.. غالبية المحاربين سقطوا خلال أعمال المقاومة. أما من بقي منهم، وبينهم قائد التمرد مردخاي أنيليفتش، فقد لقوا حتفهم في معقل قيادة «المنظمة اليهودية المحاربة»، قسم منهم انتحر باطلاق النار على نفسه والقسم الباقي مات مختنقاً بالغاز الذي سربه الألمان إلى داخل المعقل...

مع ذلك يبقى «تمرد غيتو وارسو»، في قراءة زرطال، مشحوناً بمحمولات إنسانية عامة تفوق في أهميتها ومعانيها المجردة الأهمية التي قصرت القيادة الصهيونية رؤيتها عليها، بما يجعل البحث عن الخصوصية اليهودية - مجرد البحث- ضرباً من الختل والإثم.

في هذا الحكم التفسيري ما يحيلنا إلى المنطلقات الرعناء للبحث عن «الخصوصية اليهودية». فلقد شكل هذا البحث، المحمول على ثمن باهظ من الضحايا والعذاب، وسيلة غايتها دعم المنطلقات الصهيونية.

ايخمان في المحكمة في قفص زجاجي

ولهذا فان قيادة الييشوف لم تتجاوز غائياتها المألوفة، على ما بها من بلادة تشمل الحسّ والتفكير والعقل معاً، ونظرت إلى «التمرد» باعتباره عملاً صهيونياً جديراً بأن يدخل صفحات «التاريخ الرسمي» للصهيونية. وهي الغائيات نفسها التي وقفت، من قبل، وراء ترويج حملات الازدراء والرفض لضحايا الهولوكوست وللناجين منه كذلك.

وداخل هذا الإجراء المتوحش يبرز عنصر آخر لا يقل وحشية يتمثل في إقحام «خصوصية يهودية» على الموت تؤول الى التفريق المروّع بين «موت أنيق» وبين «موت قبيح» من منطلق الكيفية التي يتعرض فيها الانسان للموت، مع ما يحمله هذا التفريق من تبرير أشدّ وحشية للموت الأول واستخفاف حيواني بالموت الثاني.

في إقامة حدّ فاصل داخل هذا التفريق قال بن غوريون نفسه :

« هؤلاء المتمردون (في غيتو وارسو) تعلموا منا، نحن في أرض اسرائيل، كيف يموتون موتاً أنيقاً »[٩].

يمكن الاستطراد أكثر فأكثر في إيراد الاستشهادات التي تفضح جوهر النظرة الصهيونية الى الهولوكوست وضحاياه ووقائعه، غير أن جميعها تصب في المحصلة في اتجاهين رئيسين:

الأول : اتجاه تعزيز صورة «اليهودي الجديد».

الثاني– اتجاه التماثل مع القاهر، القامع، في صورته الأشد وضوحاً وفظاظة. وهو الاتجاه الذي رأى فيه بعض الباحثين أنه قاد لاحقاً إلى ما هو أشد وأدهى منه – اتجاه تمثل القاهر، القامع، ومحاكاة ممارساته[١٠]. لكن ليس هنا مكان الاستغراق في الحديث عنه.

أخيرًا، هذه الكتابات الجديدة تجاهر باعتراضها على الرواية الاسرائيلية الرسمية ومحاججاتها حيال الهولوكوست وبالأخص وحدة النظر إليه على ما في ذلك من أحادية.

وهي «وحدة» مارست، حتى وقت قريب، شكلاً من أشكال العنف تمثل في «العنف الرمزي» عندما فرضت مجموعة من المسلمات العمياء التي لا نقاش فيها ولا بيان عليها، المسلمات التي اتخذت في التاريخ الحديث لدولة اسرائيل أعمال التأسيس التي تكلمنا عنها، أسطورية كانت في حقيقتها أم لا. ولهذا فإنها (الكتابات) تسهم، شأن غيرها من صنوف هذه الكتابة نفسها في مضامير دلالية أخرى، في إعادة انتاج المعرفة في دوريها: دور الحقيقة المفترضة ودور السلطة المؤسسة.

ثانيًا- عن وقائع عملية «تطهير اليهودي العربي من عروبته»!

لتبيان الجوانب المثيرة في وقائع نسيان ما ينبغي من سيرة اليهود الشرقيين نتناول ما احتوى عليه في هذا الصدد كتاب «اليهود العرب- قومية، دين وإثنية» الصادر أخيرًا[١١].

مؤلف هذا الكتاب هو البروفسور يهودا شنهاف، أستاذ علم الاجتماع والأنثربولوجيا في جامعة تل أبيب وباحث كبير في «معهد فان لير» في القدس ومحرر المجلة العلمية الإسرائيلية «نظرية ونقد»، المتخصصة أكثر شيء في نقد الصهيونية وإسرائيل.

شغل في الماضي منصب رئيس القسم المذكور في الجامعة وعمل أستاذا زائرًا في جامعات ستانفورد وكولومبيا وبرينستون في الولايات المتحدة الأميركية. له عدة إصدارات ومقالات علمية وكذلك عدة كتب منشورة أهمها: Manufacturing Nationality، الصادر عن أوكسفورد في العام ١٩٩٩ .

وله أيضًا كتاب «الشرقيون في إسرائيل» بمشاركة باحثين أكاديميين آخرين، إصدار فان لير، ٢٠٠٢. وله كتاب آخر صدر في العام ١٩٩٥ عن «دار شوكن للنشر» بعنوان «ماكنة التنظيم». ينحدر شنهاف من عائلة يهودية عراقية هاجرت إلى فلسطين عشية قيام الدولة العبرية، وقد برز في السنوات الأخيرة كباحث جامعي مناهض للسياسة الإسرائيلية الرسمية تجاه الفلسطينيين على طرفي الخط الأخضر. ويعتبر شنهاف من مؤسسي حركة «القوس الشرقي الديمقراطي»، وهي حركة تعلن عن نفسها بأنها تناضل ضد التمييز بحق الشرقيين ومن أجل «العدالة الاجتماعية في المجتمع الإسرائيلي».

في كتابه هذا يقدم لنا شنهاف شهادة باحث من أصول شرقية حول تعامل المؤسسة الإسرائيلية الأشكنازية في إسرائيل مع «اليهود العرب»، ويقصد بذلك اليهود الذين هاجروا من البلاد العربية إبان النكبة الفلسطينية في العام ١٩٤٨ .

فمن هم هؤلاء «اليهود العرب»، وكيف تحولوا إلى «شرقيين»، وكيف تحول هؤلاء مقابل اليهود الأوروبيين إلى فئة «غير ممكنة» في إسرائيل، ما هي «الشرقية» أو لنقل «الشرقوية» وما علاقتها بالدين والقومية، ما علاقة «اليهود العرب» بنضال الشعب الفلسطيني من أجل الاستقلال الوطني؟.

هذه الأسئلة الكبيرة يطرحها الكاتب ويجيب عليها في بحث يتميز فعلا عن غيره من الأبحاث، التي غاصت في موضوعة التمييز والهوة بين الشرقيين والغربيين (السفارديم والأشكناز) .

الفصل الأخير من كتاب شنهاف، والذي جاء حاملا لعنوان «الذاكرة: انقسام الخيال القومي والهوية الشرقية»، يعتبر من أهم الفصول. وفيه يقدم المؤلف ما يسميه بـ«وجهة نظر شرقية» (أو «شرقوية») حول المجتمع الإسرائيلي وتاريخه المخصوص بالذات من خلال تفكيكه لعملية بناء الذاكرة القومية أو تشييدها. ويستعين لمهمته هذه بمقولة للمفكر «وولتر بنيامين»، يثبتها كبادئة لهذا الفصل، من مداخلة لهذا المفكر في تعريف مصطلح التاريخ، جاء فيها (بترجمة خاصة عن العبرية): «أن تصيغ التاريخ كما لو أنه ذلك الذي انقضى لا يعني أن تقرّ به حسبما كان حقاً. يعني ذلك أن تكتنز ذاكرة وفقما لمعت في لحظة يتهددها الخطر».

ولغرض تقديم «وجهة النظر» المذكورة في الإطار الذي حدّده لهذا الغرض يشير شنهاف إلى أنه اختار التركيز على نشاط ومنظور عمل «المنظمة العالمية لليهود المولودين في الأقطار العربية» (WOJAC)، نظرا لأن هذه المنظمة ولدت «من أجل أن تموضع الذاكرة الشرقوية في خارطة الذاكرة الجماعية الصهيونية، وليس من أجل أن تضع تلك الذاكرة (الأولى) أمام التحديات أو أن تتميز عن الذاكرة الثانية»، كما يكتب.

ويمهّد لغوصه على عمل هذه المنظمة بمداخلة نظرية حول الذاكرة وعملية تشييدها، التي يقول بأنها ليست ملازمة للمجتمعات الحديثة فحسب، ولكنها شهدت تجليات في العصور القديمة أيضاً. ويرى المؤلف أن الاشتغال على مسائل تشييد الذاكرة الجماعية تعرّض لمنعطف يصفه بأنه «دراماتيكي» في السبعينيات، ترتبًا على فاعلية الحركة الما بعد كولونيالية، التي تطورت آنذاك في العالم الثالث.

فقد رأت هذه الحركة في الهستوريوغرافيا والذاكرة الجماعية مصدرًا لشرعنة الهيمنة الثقافية والتعريف الذاتي، وبدأت تصوغ من جديد حكايات تاريخية معيارية باسم الفئات المقموعة، المهمشة. وفي موازاة هذه الحركة تطور (في الأقطار الغربية) الفكر الما بعد حداثي، الذي نفى إمكانية وجود حكاية تاريخية متصلة واحدة وكفر بالحقيقة التاريخية الواحدة المطلقة وطالب بصياغة علاقة أكثر تركيبًا وإشكالية بين الذاكرة والتاريخ.

الذاكرة والنسيان هما جزء من منظومة الهيمنة ومن منظومة بناء الذاكرة القومية. وينوه باحثون في هذا الشأن إلى أن أيديولوجيي الدولة القومية أوجدوا كذلك «ذاكرة الموتى»، الذين يحمل رسالتهم ويواصل دربهم المقاتلون الأحياء. والنسيان أيضًا مرتبط ببناء القومية. وبعض الأيديولوجيين القوميين، مثل الفرنسي إرنست رينان، جعلوا هذا النسيان حتى مطلبًا قوميًا. وهكذا فلا غرو إن تضمن مشروع بناء «الأمة الإسرائيلية» وفرة من الأشياء التي كان ينبغي بـ«الذاكرة القومية» نسيانها (ومن ذلك يذكر الباحث يتسحاق لاؤور، مثلا، اليبدشية وما جرى ارتكابه ضد اليهود الشرقيين الذين جلبوا إلى هنا وطرد الفلسطينيين).

لكن، كيف يرتبط كل هذا مع موضوع اليهود العرب، محور كتاب شنهاف؟.

جوابًا على هذا السؤال يؤكد المؤلف ما أصبح معروفا للكثيرين غيره، من الباحثين والقراء، أن الحركة الصهيونية منذ بدايتها بلورت الذاكرة الجماعية لـ«الأمة» (اليهودية) وذلك في سبيل «ترسيم حدودها (الأمة) وتعيين أعضائها». ولذا فقد أنتجت وأشاعت تصاوير عن الماضي تصف مصادر تلك الأمة وسيرورات تطورها على مرّ التاريخ. وقد جعلت الأيديولوجيا الصهيونية التاريخ اليهودي متحاذيًا على أساس العلاقة مع الأرض وطورت ما يسمى بـ «الوعي الإقليمي»، والذي بواسطته قسمت الماضي كله إلى فترتين رئيسيتين: الأولى– العصر القديم، وهو الزمن الذي استوطن فيه الشعب اليهودي في أرض إسرائيل قبل خراب الهيكل. والفترة الثانية– فترة الشتات، التي انقطعت خلالها الصلة مع البلاد.

وبينما كانت الفترة الأولى ترمز، في قراءة الصهيونية، إلى مرحلة السيادة (وبالأخص فترة ملكوت دافيد وشلومو)، وهي مرحلة إيجابية كليًا يتعين تذكرها بحنين جارف في سبيل العودة إليها ضمن أشياء أخرى، فان الفترة الثانية تعرضت للنفي (ما اصطلح على تسميته بـ«نفي المنفى/ الشتات») وكان الهدف من ذلك دفع تلك الفترة إلى صيرورة مطلقة من النسيان في أذهان اليهود كافة (إنما أساسًا دفعها إلى تلك الصيرورة في أذهان اليهود الأوروبيين).

إلى ذلك يضيف شنهاف أن اللقاء بين الصهيونية وبين اليهود العرب تميز منذ بدايته (أو منذ نقطة الصفر، إذا ما استقرضنا اصطلاحاته) بتداخل المنطقين القومي والكولونيالي فيه. ومن أجل شمل اليهود العرب في «المشروع القومي» (على المقاس الصهيوني الحصري) كان على هؤلاء المرور في سيرورة إلغاء لعروبتهم، أو حسب تسمية المؤلف كان عليهم التعرّض لعملية «تطهير اليهودي العربي من عروبته».

صحيح أن هذا الإلغاء أو التطهير جرى تبريره، من طرف الصهاينة أنفسهم، بأحاديث عن العصرنة والتقدم (بالنسبة لهؤلاء اليهود)، لكن الذي هدّد القومية الصهيونية لم يكن «تخلف» أو «تقاليد» اليهود العرب وإنما عروبتهم المشدّد عليها من قبلهم هم أنفسهم، يقول شنهاف. الماضي العربي ليهود الشرق هدّد بأن يمسّ وحدة صف الأمة الإسرائيلية المتجانسة ظاهريًا وأن يموّه الخط الفاصل الضروري (سياسيًا) بين اليهود والعرب. وفي هذا الشأن ردّد بن غوريون (دافيد) المقولة التالية: «نحن لا نريد بأن يكون الإسرائيليون عربًا. يتوجب علينا أن نكافح روح المشرق الذي يخرب أفرادًا ومجتمعات».

لكن بالعودة إلى منظمة «ووجاك» (الأحرف الأولى من المنظمة العالمية لليهود المولودين في الأقطار العربية)، التي سبق ذكرها، ينبغي الإشارة إلى ما يلي:

* تأسست هذه المنظمة في سنة ١٩٧٥ وظلت ناشطة حتى سنة ١٩٩٩. وقد بادر إلى تأسيسها «الزعيم» اليهودي العراقي مردخاي بن بورات، وهو عضو كنيست ووزير إسرائيلي سابق من حزب «مباي» ولاحقًا من حزب «رافي» (أسسه بن غوريون بعد إنشقاقه عن «مباي»)، سوية مع «شخصيات جماهيرية« من «وزنه الثقيل» من يهود المغرب وتونس وسورية والعراق. وقد ترأس بن بورات هذه المنظمة إلى جانب المليونير اليهودي العراقي ليئون تمان من لندن.

«اليهودي الجديد»

* حصلت المنظمة على دعم مباشر، مادي ومعنوي، من وزارة الخارجية الإسرائيلية ومن الوكالة اليهودية. وكانت تستدعي، بين الفينة والأخرى، العديد من السياسيين والباحثين الأكاديميين ذوي الأصول العربية لحضور جلسات هيئتها الإدارية والإسهام في رسم وبلورة سياستها.
* أقامت المنظمة، خلال سنوات نشاطها، فروعًا لها في نيويورك ولندن وروما وزيوريخ، كما عقدت مؤتمرات دولية في باريس (١٩٧٥) ولندن (١٩٨٢) وواشنطن (١٩٨٧). وعقدت أربعة مؤتمرات في إسرائيل.
* توقف عمل المنظمة في سنة ١٩٩٩، كما ذكرنا، بسبب توقف أموال الدعم من طرف وزارة الخارجية الإسرائيلية والوكالة اليهودية، وهذه كانت الحجة المعلنة لكن شنهاف يلمح إلى أن إيقاف عمل المنظمة جاء بعد أن استنفدت «الدور المرسوم لها» في بناء «الذاكرة القومية».
* يؤكد شنهاف أن منظمة «ووجاك» تمتعت بقدر عال من الوعي حيال مسألة التوثيق. وفي إطار ذلك فقد تم تسجيل كل المؤتمرات التي عقدتها ومن ثم تمّ إصدار وقائعها في كتب. كما تم تلخيص لقاءات الهيئة الإدارية كتابيًا. وأصدرت المنظمة مئات الوثائق المتعلقة بنشاطها، من رسائل وكراريس وكتب ومقالات. وتم كل ذلك باللغة العبرية طبعًا، لكن كانت هناك نصوص كثيرة باللغتين الانجليزية والفرنسية أيضاً. وقد احتفظ بجميع هذه المواد في مكاتب المنظمة في تل أبيب. ولكن في بداية سنة ١٩٩٨ بدأ العمل في نقلها إلى الأرشيف الصهيوني المركزي. وقد اطلع المؤلف على جميع هذه المواد في الأرشيف الصهيوني، بدءًا من آذار ١٩٩٨، ويبدو أنه كان أول باحث يطلع على الأرشيف لغرض البحث، ومن هنا أهمية خلاصاته بالنسبة لتأثير هذه المنظمة ودورها الحاسم في المحور الذي نتناوله.

في تقطيره لعمل هذه المنظمة على المستوى السياسي العام، الذي يرتبط بكيفية ما مع كينونة إسرائيل الراهنة من الناحية السوسيولوجية كما يرتبط مع صراعها ضد العالم العربي وضد الفلسطينيين على وجه الخصوص، يشير شنهاف إلى أن إنجاز «ووجاك» الأبرز خلال سنوات عملها المذكورة يتمثل في أنها «صاغت ثلاث نظريات سياسية كبيرة» (من حيث كونها عظيمة الأهمية بالنسبة لإسرائيل وأيديولوجيتها الصهيونية):

النظرية الأولى ادعت بأقدمية الكيان اليهودي، قوميةً ودينًا، في منطقة الشرق الأوسط.

النظرية الثانية أكدت أن تبادلا سكانيًا بين لاجئين عرب ولاجئين يهود في الشرق الأوسط قد حصل فعلا ويمكن الإستفادة منه في أي وقت.

النظرية الثالثة أقرّت بأنه في أعقاب تبادل السكان المذكور يمكن تبني الادعاء، في الوقت الراهن، بشأن الموازنة (أو التعويض) في الأملاك بين اللاجئين العرب واليهود.

عن هذه النظريات الثلاث يكتب شنهاف قائلا: «هذه النظريات، التي تمت صياغتها في أواسط السبعينيات، أخذت مفعولا مضاعفًا في أعقاب اتفاق السلام مع مصر وبدء النقاش حول اللاجئين الفلسطينيين. فعلى أساسها، وهذا ما اعتقده أعضاء إدارة المنظمة، في مقدرة دولة إسرائيل أن تدعي، من جهة، الحقوق الشرعية لليهود في أرض إسرائيل (أقدمية الكيان اليهودي) وأن ترفض، من جهة أخرى، المطلب الفلسطيني بحق العودة (تبادل السكان تمّ حقًا) وكذلك أن ترفض، من جهة ثالثة، المطلب بالتعويض عن الأملاك الفلسطينية التي صادرها القيم العام لدولة إسرائيل (موازنة الأملاك)». وعلى هذا الأساس فإن عضو إدارة المنظمة، د. جاك برانس، وازى من حيث الأهمية بين تأسيس منظمته وبين نشاط منظمة التحرير الفلسطينية، بقوله: «نحن الجواب الوحيد (في إسرائيل) على م.ت.ف، على حق العودة.. من أجل ذلك نحن موجودون».

غير أن نشاط «ووجاك» تركز، بصورة رئيسة، في تخيّل الماضي وفي محاولة استعمال هذا الماضي المتخيّل من أجل إحلال القومية اليهودية في الشرق الأوسط وبلورتها. ولذا كان من الطبيعي أن تعمل المنظمة في ميدان تشييد الذاكرة القومية، أولا وقبل أي شيء.

ومع أن شنهاف يرى إلى خطورة ما ترتب ويترتب إلى الآن على النظريات الثلاث المذكورة، في الشأن السياسي العام، فانه يؤكد أن تلك النظريات انطوت في الوقت ذاته على دلالات مضادة بالنسبة لمشروع بناء الذاكرة وسياسة الهويات. ويوضح هذه الدلالات المضادة على الوجه التالي:

١. نظرية أقدمية الكيان اليهودي، قومية ودينًا، في منطقة الشرق الأوسط، كان لا بدّ أن تنطوي على مركب مهم هو «رابطة يهود الدول العربية مع أرض إسرائيل». وتنسحب هذه الرابطة أيضًا على الفترة التي تدعي الصهيونية بانقطاع الصلة فيها بين الشتات وبين البلاد، ما يعني أن هذه النظرية تقسّم، في المحصلة، وربما دون قصد مسبق منها، الوحدة الإثنو- قومية اليهودية حسبما تروّج لها الصهيونية، ناهيك عن أنها تعرض ماضيا لليهود العرب مختلفًا عن ماضي اليهود الأوروبيين. وفي رأي شنهاف فان هذه النظرية تجعل اليهود العرب مختلفين مع الأيديولوجيا الصهيونية في ثلاثة مواضيع أساسية هي: النظرة إلى الإقليم والموقف من التاريخ ومن الهوية.

٢. نظرية تبادل السكان في الشرق الأوسط تم اللجوء إليها، من طرف «ووجاك»، أساسًا، من أجل تقويض ادعاء حق العودة من جانب الحركة الوطنية الفلسطينية. وإن تبنّي هذه النظرية استوجب من «ووجاك»، في رأي المؤلف، أن تصوغ موقفًا في مسألتين تاريخيتين شديدتي التعقيد: الأولى- مسألة ماهية العلاقات بين اليهود والمسلمين في الدول العربية على مرّ التاريخ طبعًا، والثانية- مسألة تعريف مكانة اليهود في الدول العربية، في إطار طرح التساؤلين التاليين: هل هم لاجئون- مطرودون؟ أم أنهم صهاينة أصحاب وعي كافحوا من أجل الهجرة إلى أرض إسرائيل؟.

يرى أكثر من باحث صهيوني أن إحدى أبرز محصلات الهولوكوست هي ذهاب يهود أوروبا «الى المسلخ مثل الخراف». وهو التعبير الحرفي الذي استخدمه أبناء الييشوف، وقيادته أحياناً، لتوصيف ضحايا النازية، في إلماح مفرط في جهارته الى غيظهم وحنقهم على هذا الخنوع الذي يصيب المنطلقات الصهيونية لتعزيز صورة «اليهودي الجديد» في مقتل. وترتباً على ذلك تغيًا باحثون آخرون أن يربطوا بين هذا الموقف وبين حقيقة أن قسماً من قيادة الحركة الصهيونية في فلسطين رفض تقديم أية مساعدة في انقاذ يهود أوروبا

ومع أن المسألتين تتداخلان، في المبنى والمعنى، إلا أنه ثمة أهمية خاصة للمسألة الثانية، حيث أن تعريف هؤلاء اليهود العرب بأنهم لاجئون- مطرودون، يتناقض مباشرة مع نظرية أقدمية الكيان اليهودي، التي سبق ذكرها، إذ أن هذه الأخيرة تستدعي أن تشرح بإسهاب كيف عاش اليهود بهدوء تحت حماية الإسلام والعرب طوال آلاف السنوات، في حين أن التمسك بنظرية اليهود اللاجئين يؤكد هشاشة وجودهم في الدول العربية. فضلا عن ذلك فان نظرية اللاجئين تتناقض مع كون هجرة هؤلاء إلى أرض إسرائيل تحمل دوافع صهيونية أيديولوجية. ويشير شنهاف إلى أن بن بورات حاول أن يجسر على جميع هذه التناقضات بقوله: لكل يهودي ثمة توق للقدوم إلى إسرائيل، وهو يقول ذلك في كل مكان، حتى في الاتحاد السوفييتي. تحت أي ضغط يقول اليهودي: السنة القادمة في القدس. غير أن الملاحقات في الدول العربية زادت هذا التوق، إلى درجة أنهم لم يمنحوه، لليهودي، إمكانية البقاء في بلاده.

٣. أما بالنسبة لنظرية «موازنة الأملاك» فإن شنهاف يعتقد بأن التحدي الأكبر لها جاء من طرف أعضاء غير إسرائيليين في «ووجاك». وبين هؤلاء يشير إلى ثلاثة بارزين أكدوا أن ليس لإسرائيل الحق في استعمال الأملاك اليهودية في الدول العربية لأغراضها السياسية من خلال طمس الحقيقة أن جزءًا من أصحاب هذه الأملاك ليسوا مواطنين في إسرائيل.

نجد إذًا أن شنهاف لجأ إلى الفكر الما بعد حداثي لكي يقوّض رواية الهستوريوغرافيا الصهيونية الرسمية من خلال قصة اليهود العرب، ولكي يكفر بالحقيقة التاريخية المطلقة حول الأمة اليهودية والذي يعتبر هو نفسه من أبرز المستأنفين عليها، كما يوضح هو نفسه في سياق آخر. غير أن شنهاف لم يقدم فقط روايته، التي تتناقض مع الرواية الرسمية ومع تفريعاتها وتخريجاتها المختلفة في المواضيع التي يتطرق إليها في فصول الكتاب كافتها، بل إنه أيضًا حاول أن يتلمس الثغرات التي لم تنجح الرواية الرسمية في أن تسدّها بالكامل. غير أن جديده في هذا الكتاب، وهو ليس الأول الذي يحاول أن يخوض في سؤال الهوية الإسرائيلية من زاوية «سياسات الهوية» وارتباطها تحديدًا باليهود العرب أو الشرقيين، فقد سبقه إلى هذا الموضوع باحثون آخرون بعضهم اتكأ أيضًا على أفكار الما بعد الكولونيالية، ربما يكمن في أنه يبذل جهدًا مركّزًا لتبيان كيف «انقلب مفعول السحر على الساحر»، إذا جاز التعبير. بكلمات أخرى: كيف أدت المحاولات المختلفة، الصهيونية القالب والمحتوى، الرامية إلى بناء هوية إسرائيلية لليهود العرب من خلال قمع هويتهم العربية، إلى التمسك أكثر فأكثر بهذه الهوية وإلى تحديد (من الحدّة) مسألة التمييز الطائفي في إسرائيل، التي تحيل بدورها إلى بذور التناقض في الصهيونية، فكرًا وممارسة.

أما من ناحية الوثائق التاريخية فإن كتاب شنهاف هذا يقدم لنا، بالتأكيد للمرة الأولى، بحثًا معمقًا حول عمل ونشاط منظمة «WOJAC» التي أدت دورًا شديد الخصوصية في بناء «الأساطير المؤسسة لإسرائيل»، خاصة تلك التي ما زالت تتفاعل إلى الآن ارتباطًا بالنزاع الإسرائيلي- الفلسطيني. ولو كان إسهام الكتاب منحصرًا في هذا الجانب فقط لكفاه ذلك من أجل اعتباره وثيقة اجتماعية تاريخية مهمة حول الكيان الإسرائيلي المؤدلج بالصهيونية، الذي كلما غاص البحث العلمي في ماضيه تكشفت أمامنا المزيد من «الحقائق السوداء» الملازمة لنشوئه، سواء بالنسبة لنا كفلسطينيين وبالنسبة للإسرائيليين أنفسهم أيضًا.

هوامش:

١. د. إيلان بابي: «ما بعد الصهيونية: توجهات جديدة في الخطاب الأكاديمي الإسرائيلي حول الفلسطينيين والعرب». مجلة الدراسات الفلسطينية. العدد (٣١) – صيف ١٩٩٧. ص ٧٧ – ٩٥.

٢. الوضعية (أو المذهب الوضعي): مذهب فلسفي منبثق عن مجموع العلوم الصحيحة. وكان الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي أوغوست كونت، واضع أسس هذا المذهب، يستعمل هذا المفهوم في مواجهة الفلسفة اللاهوتية والماورائية. ينكر الوضعيون أهمية الفلسفة بوصفها منهاجاً للمعرفة ولتغيير العالم الموضوعي، ويلخصون دورها في إجمال معطيات تصل إليها العلوم المختلفة وفي الوصف المظهري لنتائج الملاحظات المباشرة.

٣. قدّم الزميل الباحث حسن خضر قراءة متميزة لكتاب توم سيغف (في طبعته الانكليزية الصادرة سنة ١٩٩٣ عن منشورات «هيل ووانغ» في نيويورك) في مجلة «الكرمل» – رام الله. العدد (٥٣) – خريف ١٩٩٧. ص ٢٥٦ – ٢٦٠.

٤. عيديت زرطال: «ذهب اليهود» (باللغة العبرية). منشورات «كيتر» – ١٩٩٦. وقد ظهر هذا الكتاب في طبعة انكليزية تحت العنوان «من الهولوكوست إلى السلطة».

٥. يوسف طمير: «مسيرة المؤرخين المغرضين»، جريدة «هآرتس» – ٣/٢٠/ ١٩٩٤.

٦. رودولف كاستنر – أحد النشطاء الصهيونيين في هنغاريا خلال الحرب العالمية الثانية، وأحد كبار الموظفين في دولة إسرائيل بعد قيامها. وقد جرى تقديمه إلى المحاكمة في سنوات الخمسين، بعد أن اتهمه أحد اليهود الهنغاريين بالتواطؤ مع الألمان. وبمبادرة من الأحزاب والحركات المناوئة لمباي جرى تحويل محاكمة كاستنر إلى محاكمة للمباي والوكالة اليهودية «بتهمة» عدم بذل الجهود المطلوبة والكافية لانقاذ يهود أوروبا.

٧. أدولف أيخمان – أحد الضباط النازيين. قامت اسرائيل، سنة ١٩٦٠، باختطافه ومحاكمته وإعدامه في أراضيها. وكان ذلك الحدث الأبرز الذي أعاد فتح ملف الهولوكوست.

٨. عيديت زرطال: «المعذبون والقديسون – إنشاء سجل شهداء قومي». مجلة «زمانيم» (أزمنة)، العدد ٤٨ – ربيع ١٩٩٤. ص ٣٦–٤٥.

٩. المصدر نفسه.

١٠. أمنون راز – كركوتسكين: «شتات داخل سيادة – في نقد نفي الشتات في الثقافة الاسرائيلية». مجلة «نظرية ونقد» الفصلية. إصدار: معهد «فان لير» في القدس ومنشورات «هكيبوتس همؤوحاد» في تل أبيب. العدد ٤ – ربيع ١٩٩٣. ص ٢٣–٥١.

١١. يهودا شنهاف: «اليهود العرب – قومية، دين وإثنية»، إصدار «عام عوفيد»، تل أبيب – ٢٠٠٣.

بقلم: شلومو آرئيل

التجربة الإسرائيلية ـ اليهودية

الموجة الحالية من العنف الفلسطيني ـ الإسرائيلي صدمة نفسية جماعية أم علاج لصدمة؟

نحن الذين نتخصص بالصحة العقلية، نتدرب كي نكون متورطين عاطفيا، ومنفصلين مع ذلك، نحسن الاستبطان، والتحكم بأفكارنا وردود أفعالنا. وهذه مطالب مبالغ فيها. وهي تزداد مبالغة عندما تتعلق بحالة مروّعة وشريرة، مثل موجة العنف الفلسطينية ـ الإسرائيلية الحالية.

مع ذلك، فسوف أبذل أفضل ما لدي من جهد للالتزام بتلك الشروط المهنية، في المحاولة التالية لوصف الطريقة التي تُرى فيها الأمور من وجهة النظر الإسرائيلية ـ اليهودية وتحليلها. وبسبب رغبتي في تفسير الهياج العاطفي والارتباك العقلي لديّ ولدى شعبي، سأبذل جهودا منظمة في تطبيق مفاهيم نظرية، تقود عملي، الذي يتعلق بدور الثقافة وتغير الإتيولوجيا (علم أسباب الأمراض) الخاصة بعلم النفس المرضي.

الهجرة والاستيطان اللتين بدأ بهما اليهود مع نهاية القرن التاسع عشر، إلى البلاد التي لم يكف اليهود عن تسميتها أرض إسرائيل، قوبلت منذ البداية بدورات من العنف الفلسطيني، والمقاومة العربية بعد ذلك، والانتقام الإسرائيلي الذي لا يقل عنفا، وهو ما تسبب في موت وشقاء لدى الجانبين. وموجة العنف الحالية ليست لها سابقة في حجمها وقسوتها وشراستها من قبل الجانبين. والإحصاءات الرسمية التي أصدرها الناطقون الرسميون في جيش الدفاع الإسرائيلي تحصي ٢٠,٠٠٠ هجوم على اليهود من قبل الفلسطينيين منذ أيلول ٢٠٠٠ حتى الآن. وهذه الهجمات تصنف تحت الفئات التالية، بعد استثناء الهجمات العسكرية وشبه العسكرية ضد مواقع الجيش: قذف المدنيين بالحجارة، بما في ذلك قذف يهود يصلّون عند حائط المبكى وأماكن عبادة أخرى، طعن عشوائي للمارة أو زملاء العمل اليهود في مكان العمل، دهس المشاة بالسيارات، الإعدام دون محاكمة، القصف العشوائي وإطلاق

*خبير في الصحة النفسية.

النار على المدنيين في الأماكن العامة، مهاجمة مركبات المدنيين وإطلاق النار عليها، بما في ذلك حافلات المدارس وسيارات الإسعاف، إطلاق النار على بيوت الناس في الأماكن السكنية، التفجيرات، والتفجيرات الانتحارية في الأماكن العامة مثل الحافلات والمطاعم وأماكن اللهو وأماكن العبادة، اقتحام بيوت الناس وقتل عائلات كاملة خلال نومها، السيارات المفخخة في الأماكن العامة، تسميم الطعام، حرق الكنس وأماكن العبادة الأخرى، الخ، الخ. وفي عدد غير قليل من الحالات أزيلت عائلات كاملة عن وجه الأرض في هجوم واحد. عدد الإصابات الإسرائيلية بين اليهود وغير اليهود تصل حتى الآن إلى ألف قتيل بينهم ٨٠٠ مدني، و٦٥٠٠ جريح بينهم ٥٠٠٠ مدني. هذه القائمة تضم الهجمات الناجحة فقط. الناطقون الرسميون للجيش أعلنوا أن ٩٠٪ من خطط الهجوم، أو محاولاته أحبطت أو منعت. وقد استخدمت إسرائيل أساليب مثل حظر التجول اليومي وحواجز الطرق التي تجعل حياة الفلسطيني العادي اليومية لا تطاق، والاعتقالات الوقائية واغتيالات الناشطين الفلسطينيين بحجة أنهم «قنابل موقوتة» ـ والأخير كثيرا ما أخذ معه أرواح مدنيين أبرياء، لأن أولئك الناشطين يختبئون في أماكن كثيفة السكان ـ إطلاق الرصاص المطاطي على المتظاهرين، تدمير مناطق تستخدم لإطلاق النار، هدم عقابي لمنازل عائلات الناشطين، ومثل ذلك. ضحايا هذه الأفعال، وكثير منهم من المدنيين الأبرياء، وترتفع إلى ثلاثة أضعاف الضحايا اليهودية للهجمات الفلسطينية. معظم اليهود الإسرائيليين على أية حال يقبلون كحقيقة، الإعلان الذي يقول إن ٩٠٪ من الهجمات الفلسطينية التي خطط لها، أو بدأت محاولتها أحبطت أو منعت. وهم يسمحون لموقفهم من تلك الموازين المضادة القاسية والمثيرة للجدل قانونيا بأن يتأثر، ليس بما حدث وحسب، ولكن بما يعتقدون أنه كان من الممكن أن يحدث أيضا. ما كان يمكن أن يحدث، يحتمل أن يصبح، كما يرونه، مجازر شاملة لليهود، إبادة جماعية، هولوكوست أخرى.

باختصار، منذ أيلول ٢٠٠٠، تظهر الثورة الصهيونية أمام العديد من الإسرائيليين وكأنها فقدت قوتها. يهود إسرائيل يشعرون بأنهم يتجهون إلى تجربة تاريخية مأساوية لا مفر منها. حالة عقول الظلام، والمنفى القاسي تحوم تدريجيا بيننا الآن. وهذه المشاعر يتم التعبير عنها في كل مكان: في الحديث العادي بين الناس، في المقالات، في المقابلات والكتب التي تعكس وجهة نظر مثقفين قياديين إسرائيليين، وفي رسائل إلى المحررين، الخ. الخ.

يهود إسرائيل، فوق ذلك، لا يرون تهديد الجانب الفلسطيني معزولا، بل كجزء من منظومة خطر لا يمكن إغفاله، من قبل دول أخرى مثل لبنان (حزب الله) وسورية وإيران، وعراق صدام حسين حتى السنة الماضية. ويعتقد الإسرائيليون أن هذه الأنظمة تنوي تحطيم إسرائيل، وأن السبب الوحيد الذي يجعلها لا تفعل ذلك حتى الآن هو أنها لا تملك القوة لتفعله. وفوق ذلك فإن معظم الإسرائيليين يرون معاهدات السلام مع مصر والأردن هشة جدا، وتستند إلى مصالح شخصية للحكام الحاليين لتلك البلدان، لا إلى قبول شعبي واسع. ويخشى الإسرائيليون أنه بمجرد سقوط تلك الأنظمة، فإن الحكام الجدد قد ينضمون إلى تحالف القضاء على إسرائيل وإبادة سكانها اليهود. ومع بداية الانتفاضة الحالية، نظم سكان إسرائيل الفلسطينيون مظاهرات عنيفة في بعض الأماكن، مقرونة بدعم شعبي للانتفاضة من قبل بعض زعمائهم. وقد بالغ البوليس الإسرائيلي في رده، وأطلق النار فقتل عددا من المتظاهرين. رأى كثير من الإسرائيليين الأمر مبررا، لأن المظاهرات والهتافات ضد إسرائيل مرتبطة في أذهانهم بما يسمى هاميؤوروت ـ «الأحداث»، المظاهرات الفلسطينية القاتلة ضد اليهود في فترات عديدة خلال الانتداب البريطاني على فلسطين. يهود إسرائيل يخشون أن ينضم مواطنو إسرائيل الفلسطينيون إلى مواطنيهم، وإلى الدول العربية الأخرى، في العمل على القضاء على إسرائيل. ويهود إسرائيل حساسون جدا لما يعتبرونه دعاية مضادة لإسرائيل مما يرى ويسمع في وسائل الإعلام العربية والإسلامية. ومعظم الإسرائيليين يلقون باللوم على فشل محادثات السلام في كامب ديفيد ٢٠٠٠، وما تلا ذلك من انفجار للعنف على الفلسطينيين، وخصوصا على زعيمهم ياسر عرفات. وهم يرون الفلسطينيين كمعتدين، ويرون أنفسهم كضحايا. وهم يعتقدون أنه كان بإمكان الفلسطينيين التوصل إلى اتفاق عادل من خلال المفاوضات السلمية، لكنهم قرروا، كما في الماضي دائما، أن يرفضوا احتمال التسوية السلمية، وأن يلجأوا إلى العنف. ويرى يهود إسرائيل ذلك كعلامة مؤكدة على أن هدفهم الحقيقي قد بقي، كما كان دائما، وهو القضاء على إسرائيل وإبادة سكانها اليهود. لذلك ينظرون إلى ما ارتكبته إسرائيل من أفعال تمت الإشارة إليها، كحق مشروع للدفاع عن النفس. وهذا على أية حال ليس هو الوجه الذي يُرى فيه سلوك إسرائيل من قبل باقي العالم، أو على الأقل من قبل نسبة كبيرة منه. الرأي العام غير اليهودي في كثير من البلدان يميل إلى رؤية إسرائيل في إطار دولة غربية قوية، مدعومة من الولايات المتحدة الأميركية، تستخدم القوة العسكرية المفرطة ضد سكان غير غربيين فقراء لا قوة له يقاتلون بشجاعة من أجل حريتهم وحقوقهم الإنسانية. ومعظم الإسرائيليين يرون وجهة النظر هذه منحازة وغير عادلة. وقد أصبح عدد كبير من الشخصيات العامة غير اليهودية عاطفيين

كاختصاصيين في الصحة النفسية، نحن نعرف أن موقف «الاستمرار كما جرت العادة» يمكن أن يكون، من وجهة نظرنا، مقلقا وغير مطمئن. تحت سطح ذلك يكمن بركان من الغضب. قبل بعض الوقت، نشرت مقالة ما في صحيفة إسرائيلية تناقش ظاهرة مقلقة انتشرت في إسرائيل منذ أيلول ٢٠٠٠ ، الناس الذين يتسمون بكل الخصائص الطبيعية، يهاجم بعضهم بعضا بقسوة، لأسباب صغيرة ومؤسفة، مثل أن يطلب أحدهم من الآخر خفض مستوى صوت الراديو في سيارته. وبعض هذه الحالات من انفجار العنف انتهت بفقدان الحياة.

جدا في تماهيهم مع القضية الفلسطينية، وفي معارضتهم للطرف الإسرائيلي. وهم كثيرا ما يستخدمون لغة قوية يراها الإسرائيليون عدوانية. مقارنة اليهود الإسرائيليين بالنازي أصبحت تعبيرا شائعا. هذه المقارنة بالنسبة لليهود مثيرة للاشمئزاز وغير عادلة على الإطلاق. وكثيرا ما طرح سؤال: هل تملك إسرائيل حقا في الوجود. اليهود يرون أكثر الأمور شرا في «وقاحة الأغيار». وهذه النقلة في الموقف الشعبي المضاد لإسرائيل يبدو أنها ألغت التابو عن الموقف الشعبي المعلن في معاداة السامية، التي لم تعد موجهة نحو إسرائيل فقط، ولكن ضد الشعب اليهودي كله. وحش اللاسامية، النائم في كثير من الدوائر الشريفة منذ الحرب العالمية الثانية، يتضح أنه أخذ يرفع رأسه البشع ثانية. وقد سمعت مؤخرا كثير من التصريحات اللاسامية التقليدية والبدائية المتعصبة التي تبدو وكأنها خارجة من فم أدولف هتلر، على ألسنة شخصيات عامة كثيرة في بلدان أوروبية. وفيما يلي نماذج من ذلك:

« يمكن اعتبار اليهود أمة من القتلة لأنهم كانوا مسؤولون عن موت الملايين في الثورة الروسية» مارتن هوخمان، عضو البرلمان الألماني، تشرين الثاني ٢٠٠٣، (وبعد ذلك أبدى الجنرال رايندهارت غونزيل، قائد الوحدات الألمانية الخاصة، إعجابه بشجاعته في قول هذه «الحقيقة» حول اليهود).

«هذا الشعب الصغير، الشعب اليهودي، هو أصل الشرور في العالم كله» ميكيس ثيودوراكيس، الموسيقار اليوناني الشهير، ١٢/١١/ ٢٠٠٣/ وهذه التصريحات مرتبطة بالتصاعد الحاد في العنف اللفظي والجسدي الموجه إلى الأفراد اليهود، اليافعين وطلاب المدارس، وإلى الكنس ومراكز التجمع في معظم البلدان الغربية.

وقد تجاورت هذه التصريحات والأفعال في أوروبا مع النقد الجماهيري. وفي بعض البلدان العربية والإسلامية وصلت دعاية الكراهية ضد اليهود حدودا وحشية. مهاتير محمد ن وزراء ماليزيا، قال في ١٦/١٠/٢٠٠٣، في مؤتمر للقادة العرب والمسلمين: «اليهود يملكون توكيلا للتحكم في العالم». ولم يعترض أي وفد في المؤتمر على هذه المقولة، ورفض مهاتير محمد أن يعتذر. وفي العام ٢٠٠٣ عرض التليفزيون المصري مسلسلا يستند إلى «بروتوكولات حكماء صهيون»، وهو وثيقة لاسامية مزورة، تم اختراعها من قبل العقول المريضة للبوليس السري في عهد آخر القياصرة الروس. وقد تم توزيعها في روسيا باعتبارها البروتوكولات الرسمية لبعض المهلوسين من «حكماء صهيون» لتقدم وصايا تهدف إلى السيطرة على العالم. هذا الجَلد اللاسامي الذي صمم من أجل تحويل الطاقة الثورية في اتجاه اليهود ككبش فداء، وصف من قبل المسلسل المصري بأنه وثيقة أصلية. ولم تحقق نجاحا كل الاحتجاجات التي رفعت ضد عرض المسلسل.

وكتاب «فطير صهيون» الذي كتبه مصطفى طلاس، وزير الدفاع السوري السابق، من أكثر الكتب مبيعا في الوطن العربي. وهو يعيد دون خجل واحدة من أقبح الادعاءات التاريخية اللاسامية التشهيرية، تهمة الدم، التي اتهم فيها اليهود باستخدام دم أحد أطفال الأغيار، بعد أن قتلوه، في فطير عيد الفصح. وهذه التهمة، بالمناسبة، كانت سببا في مجازر ارتكبت ضد عدد من اليهود في دمشق العام ١٨٤١، وقد نشرت صورة أخرى من تهمة الدم هذه في «الرياض»، جريدة الحكومة السعودية في آذار ٢٠٠٢.

وفي ترابط مع ذلك، حدث ارتفاع حاد في الهجوم على الكنس والمؤسسات اليهودية الأخرى في البلاد العربية والإسلامية، مثل الهجوم بالقنابل على كنيسين في استانبول في الخامس عشر من تشرين الثاني ٢٠٠٣، خلال صلاة السبت.

ما هي الآثار السيكولوجية التي تترتب على هذه الأوضاع لدى يهود